الفصل الأول

ليلة في المستشفى

لم تكن مستشفى الأمراض العقلية هادئة على الإطلاق، حتى عندما جلب الليل معه سكونًا نسبيًا. كان هناك توتر مترقب في خضم حالات الخلل العقلي، توتر خفي غير منتظم، كاختلاف اندفاع الحمم أثناء ثورة البركان.

في الساعة التاسعة من ذلك المساء، أصيب المريض علوي حافظ بنوبة عصبية شديدة.

قبل أن يتمكن الممرضون من تقييده بالرداء المخصص للحالات الخطرة، كان علوي قد استطاع كسر ذراع مريض آخر مصاب بالإغماء التخشبي، الذي لم يصدر عنه أي صوت. وتحت تأثير حقنة المخدر، تهاوى علوي وخضع وسكن تمامًا.

وقف الدكتور فايز شهدي عند باب الغرفة، يراقب المشهد بصمت. كان رجلاً طويل القامة، بعيون سوداء باردة، وشفتين مزمومتين. لم يتحرك حتى انتهى الممرضون من عملهم، ثم دخل بخطوات هادئة.

نظر إلى علوي الراقد بلا حراك، ثم إلى الذراع المكسورة للمريض الآخر التي كان أحد الممرضين يثبتها بجبيرة مؤقتة. تنهد بصوت خافت وقال للممرضة سلوى إبراهيم:

- أريد تقريرًا كاملاً عن حالته خلال الساعة القادمة. ولا تتركوه بمفرده.

ابتعدت الممرضة مسرعة، وبقي فايز وحيدًا مع المريض. أخرج من جيبه دفتر ملاحظات صغير، وبدأ يكتب بخط سريع:

«نوبة عنيفة جديدة. القوة العضلية غير طبيعية. لا استجابة أولية للمهدئات العادية. المخ يبدو مدمرًا تمامًا بعد خمس سنوات من المرض.»

رفع رأسه ونظر إلى وجه علوي. كان هادئًا الآن، لكن تحت الجفون المغلقة كان هناك شيء يشبه العاصفة الساكنة. تذكر فايز كلمات حسني قبل أسبوع:

«هذا المريض فرصة نادرة يا فايز.. أو كارثة.»

خرج من الغرفة وأغلق الباب خلفه برفق. سار في الممر الطويل ذي الإضاءة الخافتة، حتى وصل إلى مكتبه. جلس خلف المكتب، وأشعل المصباح الصغير، وأخرج ملف علوي حافظ من الدرج.

قرأ التقارير القديمة للمرة العاشرة. ثم أغلق الملف ووضع يده على جبهته.

في تلك الليلة، قرر الدكتور فايز شهدي أن يجرب ما لم يجرؤ أحد على تجربته من قبل.

وأن يخاطر بعقله هو.

الفصل الثاني

قرار التجربة

في صباح اليوم التالي، انتظر الدكتور فايز شهدي حتى خرج الممرض من غرفة علوي حافظ، ثم دخل بهدوء. كان المريض ما يزال في أدنى منحنى حالته العقلية: بلا وعي، ولا حراك، وبلا مبالاة بأي شيء.

جلس فايز إلى جانب السرير، ونظر إلى الوجه الشاحب لوقت طويل. ثم همس لنفسه:

- هذه هي الفرصة الأخيرة.. لكليكما.

خرج من الغرفة واتجه مباشرة إلى مكتب الدكتور حسني النجوى. وجده يراجع تقارير المرضى، فأغلق الباب خلفه وقال بدون مقدمة:

- سأجري العملية يا حسني.

رفع حسني رأسه ببطء. كانت عيناه مليئتين بالقلق الذي حاول إخفاءه منذ أيام.

- العملية؟ تقصد.. تلك التجربة؟

- أجل. نقل قضبان التحكم الذهني من مخي إلى مخ علوي حافظ.

صمت حسني لحظة، ثم قال بصوت منخفض:

- لقد حذرتك. المخ البشري ما يزال لغزًا. لا نعرف كيف سيتفاعل.. ولا ماذا سيحدث لك أنت.

ابتسم فايز ابتسامة باردة:

- خبرتي الطويلة تؤكد لي أنها ستنجح. وعلوي لن يتعرض لأي خطورة حقيقية. أما أنا.. فأنا مستعد.

هز حسني رأسه:

- ولماذا اخترتَه بالذات؟

- لأنه استمر مريضًا عقليًا لسنوات. مخه يكاد يكون مدمرًا. إذا نجحت التجربة، سأفتح بابًا لعلاج آلاف الحالات المماثلة.

توقف فايز، ثم أضاف بصوت أهدأ:

- وقد حصلت على موافقة زوجته. وقّعت على كل الأوراق الرسمية. هي تعلم أن هذه فرصته الوحيدة.

نظر حسني إلى الأرض، ثم رفع عينيه وقال بتردد:

- سأساعدك.. لكنني أشعر بخوف شديد يا فايز.

صفق فايز على كتفه:

- الخوف جزء من أي اكتشاف عظيم. هيا، نحتاج إلى يوسف زكي أيضًا. سنحتاج إلى خبرته في الفيزياء النووية وأجهزة الليزر.

في الساعة نفسها، في منزل صغير على أطراف المدينة، كانت زوجة علوي حافظ تجلس أمام نافذة مفتوحة، تمسك بصور قديمة لزوجها قبل المرض. عندما رن الهاتف وأخبرها سكرتير المستشفى أن العملية ستتم خلال أيام، لم تبكِ. فقط أغلقت عينيها وهمست:

- اشفِه يا رب.. مهما كان الثمن.

أما الدكتور فايز، فقد عاد إلى مكتبه وأغلق الباب. جلس وحيدًا لعدة دقائق، وبرغم إظهاره الشجاعة أمام الآخرين، إلا أن يديه كانتا ترتجفان قليلاً وهو يكتب في دفتره:

«اليوم اتخذت القرار. إما أن أغير تاريخ الطب النفسي.. أو أخسر عقلي.»

ثم أغلق الدفتر، ونظر إلى المرآة المعلقة على الحائط. رأى وجهه هادئًا، لكن عينيه كانتا تخفيان عاصفة لم تبدأ بعد.

الفصل الثالث

خلفية فايز

في تلك الليلة، بعد أن عاد الدكتور فايز شهدي إلى شقته الصغيرة القريبة من المستشفى، لم يستطع النوم.

جلس أمام النافذة المفتوحة، يشعل سيجارة تلو الأخرى، وينظر إلى أضواء المدينة البعيدة. كان الدفتر الأسود مفتوحًا أمامه على الطاولة، لكن القلم توقف منذ ساعة.

تذكر.

كان عمره اثنتين وثلاثين سنة عندما دخلت أخته الصغرى «منى» المستشفى نفسها التي يعمل فيها الآن. كانت في العشرين، جميلة، ذكية، تدرس الأدب في الجامعة. ثم بدأت النوبات.

في البداية كانت هلوسات خفيفة: أصوات تهمس لها في الليل، ظلال تتحرك على الجدران. ثم تحولت إلى نوبات عنيفة، صراخ، محاولات إيذاء للنفس. الأطباء قالوا «فصام حاد». الأدوية هدأت الأعراض ظاهريًا، لكنها لم تُعد منى كما كانت.

قضى فايز ثلاث سنوات يراقبها وهي تتلاشى أمام عينيه. كان ما يزال طبيبًا شابًا طموحًا، يرفض أن يقبل أن المخ البشري لغز لا يُحل. قرأ كل الأبحاث، جرب كل العلاجات المتاحة، ووقف عاجزًا.

في ليلة ممطرة قبل اثني عشر عامًا، دخل غرفتها ووجدها قد شربت كمية كبيرة من الحبوب. أمسك بيدها وهي تفارق الوعي، وهمست له بصوت بالكاد يُسمع:

- سامحني يا فايز.. أنا تعبت من الأصوات.

ماتت في الليلة نفسها.

منذ ذلك اليوم، أصبح المخ البشري هاجسه الوحيد. لم يتزوج، لم يكوّن صداقات حقيقية، وكرّس كل وقته للبحث عن طريقة للسيطرة على ذلك اللغز الذي سرق أخته منه.

والآن، بعد كل هذه السنوات، وجد علوي حافظ.

مريض يشبه منى في بعض التفاصيل: النوبات العنيفة، التدمير التدريجي للمخ، واليأس الذي يملأ عيون أهله. لكن علوي كان مختلفًا في شيء واحد: مخه كان مدمرًا بما يكفي ليكون حقل تجارب مثاليًا.

رفع فايز رأسه ونظر إلى صورته في زجاج النافذة. همس لنفسه:

- هذه المرة لن أفشل يا منى. سأسيطر على اللغز.. حتى لو خسرت عقلي أنا.

أطفأ السيجارة الأخيرة، وأغلق الدفتر. ثم فتح درجًا سريًا في مكتبه المنزلي، وأخرج ملفًا قديمًا مكتوبًا عليه بخط يده: «قضبان التحكم الذهني – ملاحظات أولية».

بدأ يقرأ، وعيناه تلمعان في الظلام.

في الغد سيبدأ التحضيرات الحقيقية.

وفي مكان ما داخل عقله، كانت عاصفة بعيدة تبدأ في التجمع.

الفصل الرابع

التحضيرات العلمية

في صباح اليوم التالي، اجتمع الثلاثة في غرفة العمليات رقم (6).

كانت الغرفة تتميز بوجود معدات طبية جديدة تعمل بأشعة الليزر، وأجهزة قياس إلكترونية متصلة بكمبيوتر طبي ضخم. وقف الدكتور حسني النجوى بين منضدتي العمليات، وبجانبه الدكتور يوسف زكي، عالم الفيزياء النووية ضئيل الجسم، غير المهندم، ذو الوجه المليء بالتجعدات الذي يبدو غريبًا في رداء الجراحين.

قال فايز وهو يمشي بين الأجهزة:

- لن تكون هناك جراحة تقليدية. لا حاجة لثقب في الجمجمة. سنستخدم موجات الليزر المركزة لنقل قضبان التحكم الذهني مباشرة.

رفع يوسف زكي رأسه وقال بصوته الأجش:

- اشرح لنا مرة أخرى يا فايز.. ما هي هذه «القضبان» بالضبط؟

توقف فايز أمام شاشة الكمبيوتر وأشار إليها:

- المخ البشري، كما توصلنا في السنوات الأخيرة، يعمل بنشاط إلكتروني للطاقة. التفكير ليس مجرد تفاعلات كيميائية، بل إشارات كهربائية دقيقة تنتقل عبر الموصلات العصبية. قضبان التحكم الذهني هي نقاط التركيز الرئيسية لهذه الطاقة. هي التي تمنح الإنسان السيطرة على أفكاره، وإرادته، وإدراكه للواقع.

فتح ملفًا إلكترونيًا ظهرت فيه رسوم معقدة لمخ بشري مضيء بنقاط زرقاء.

- في التجارب السابقة على الحيوانات، نجحنا في نقل هذه النقاط جزئيًا. لكن النتائج كانت غير مستقرة. أحد القرود فقد القدرة على التعرف على صورته في المرآة. وآخر أصيب بنوبات هلوسة استمرت أسابيع.

نظر حسني إليه بقلق:

- وتريد أن تجربها على إنسان؟ وعلى نفسك أنت؟

أجاب فايز بهدوء:

- علوي حافظ حالته مثالية. مخه مدمر تقريبًا، لذا لن نخسر شيئًا إذا فشلت. أما أنا.. فأنا المصدر الوحيد المتاح لقضبان سليمة وكاملة.

بدأ يوسف يفحص أجهزة الليزر وهو يقول:

- سأضبط الترددات بدقة متناهية. أي خطأ بسيط قد يحرق الخلايا بدلاً من نقل الطاقة.

ابتسم فايز ابتسامة قصيرة:

- لهذا أنت هنا يا يوسف. أنت الأفضل في هذا المجال.

خلال الساعات التالية، عمل الثلاثة بصمت مركز. ثبتوا الأقطاب الكهربائية على نماذج بلاستيكية للرأس، اختبروا مستويات الأدرينالين والأوكسجين في حالات الطوارئ، وراجعوا برامج الكمبيوتر عشرات المرات.

في نهاية اليوم، جلس فايز وحيدًا في الغرفة بعد أن غادر الزميلان. وضع يده على إحدى منضدتي العمليات وهمس:

- غدًا.. نبدأ.

ثم أخرج دفتره الأسود وكتب:

«التحضيرات اكتملت. القضبان جاهزة للنقل. إما أن نحل لغز المخ البشري.. أو نؤكد مرة أخرى أنه لا يزال لغزًا.»

أغلق الدفتر، وأطفأ الأنوار، وخرج تاركًا الغرفة في ظلام دامس، إلا من وميض خافت لأجهزة الليزر التي كانت تنتظر.

الفصل الخامس

الليلة التي تسبق العملية

كانت الساعة تقترب من منتصف الليل عندما طرق الدكتور حسني النجوى باب مكتب فايز.

وجد زميله جالسًا خلف المكتب، يحدق في شاشة الكمبيوتر التي تعرض صورًا مقطعية لمخ علوي حافظ. الضوء الأزرق المنعكس على وجهه جعله يبدو شاحبًا أكثر من المعتاد.

قال حسني وهو يغلق الباب خلفه:

- لم أستطع النوم. جئت لأتحدث معك مرة أخيرة.

رفع فايز عينيه ببطء:

- قل ما تريد يا حسني. غدًا لن يكون هناك متسع للحديث.

جلس حسني على الكرسي المقابل، ووضع يديه على ركبتيه. صمت لحظة ثم قال بصوت منخفض لكنه حاد:

- أنت تخاطر بنفسك أكثر مما تتخيل. قضبان التحكم الذهني ليست قطع غيار يمكن نقلها كما ننقل كلية أو كبدًا. نحن نتعامل مع جوهر الإدراك والوعي. إذا فقدت عددًا كبيرًا منها.. قد لا تعود كما كنت أبدًا.

ابتسم فايز ابتسامة مريرة:

- أعرف. وقد قبلت الثمن.

- وهل قبلت أن تتحول إلى مريض آخر في هذا المستشفى؟ أن تفقد السيطرة على عقلك كما فقدتها منى؟

عند ذكر اسم أخته، تجمد وجه فايز للحظة. ثم قال بهدوء شديد:

- لا تذكرها الآن.

تنهد حسني:

- أنا أذكرها لأنني كنت معك في تلك الليالي. رأيتك تحطم نفسك وأنت تحاول إنقاذها. والآن تكرر الخطأ نفسه، لكن هذه المرة أنت الضحية المحتملة.

وقف فايز ودار حول المكتب حتى وقف أمام النافذة. نظر إلى الحديقة المظلمة للمستشفى وقال:

- إذا نجحت التجربة، سأفتح بابًا لعلاج آلاف المرضى الذين يعانون كما عانت منى. وإذا فشلت.. فعلى الأقل سأكون قد حاولت. الجبن يا حسني ليس خيارًا.

التفت إليه حسني وقال بصوت أهدأ:

- لست جبانًا. أنا خائف عليك. وعلى ما قد يحدث إذا خرجت هذه التقنية عن السيطرة.

صمت الاثنان فترة طويلة. ثم عاد فايز إلى مقعده وفتح الدفتر الأسود وكتب جملة واحدة:

«الليلة الأخيرة قبل أن أعبر الخط.»

أغلق الدفتر ونظر إلى حسني:

- غدًا في السابعة صباحًا. كن مستعدًا. ولا تحاول إيقافي مرة أخرى.

نهض حسني ببطء، ووضع يده على كتف صديقه لحظة، ثم خرج دون أن يقول شيئًا آخر.

بقي فايز وحيدًا في المكتب. أطفأ الكمبيوتر، وأغلق عينيه، وحاول أن يتخيل شكل عقله بعد غد.

لكنه لم يستطع.

خارج النافذة، كانت الرياح تحرك أغصان الأشجار بعنف، وكأنها تحذر من عاصفة قادمة.

الفصل السادس

العملية

في السابعة صباحًا تمامًا، أُدخل علوي حافظ إلى غرفة العمليات رقم (6) على نقالة، وهو ما يزال تحت تأثير المهدئات الثقيلة. وجهه شاحب، وعيناه مغلقتان، وجسده هادئ تمامًا كما كان طوال السنوات الخمس الماضية.

استلقى الدكتور فايز شهدي على منضدة العمليات المجاورة. ثبت الممرضون الأقطاب الكهربائية على صدغيه وجبهته ورقبته، ثم وضعوا خوذة الليزر الشفافة فوق رأسه. على الجانب الآخر، فُعلت الأجهزة نفسها على رأس علوي.

وقف الدكتور حسني النجوى بين المنضدتين، مرتديًا الرداء الأخضر والقفازات. وبجانبه كان يوسف زكي يراقب شاشات الكمبيوتر التي تعرض موجات المخ لكلا الرجلين في خطوط خضراء وزرقاء متذبذبة.

قال فايز بصوت هادئ، وهو ينظر إلى السقف:

- ابدأ عندما تكون جاهزًا يا يوسف.

ضغط يوسف على مجموعة من الأزرار. أضيء جهاز الليزر الرئيسي، وامتلأ الهواء بصوت طنين خفيف عالي التردد. ظهرت على الشاشات نقاط مضيئة داخل مخ فايز: قضبان التحكم الذهني، تتوهج بلون أزرق نقي.

قال يوسف وهو يضبط الترددات:

- سأبدأ بالنقل التدريجي. أول مجموعة.. الآن.

انطلقت حزمة ليزر رفيعة من الجهاز فوق رأس فايز، اخترقت الجمجمة دون أن تترك أثرًا، والتقطت الطاقة الإلكترونية من أولى القضبان. على الشاشة الأخرى، بدأت نقاط زرقاء باهتة تظهر تدريجيًا داخل مخ علوي المدمر.

مرّت دقائق ثقيلة.

قال حسني وهو يراقب علامات فايز الحيوية:

- النبض مستقر. الضغط طبيعي. كيف تشعر؟

أجاب فايز بصوت أجش قليلاً:

- أشعر بفراغ.. خفيف. كأن جزءًا مني يبتعد.

استمرت العملية. مجموعة بعد مجموعة، كانت القضبان تنتقل. مع كل انتقال، كانت الخطوط الزرقاء في مخ فايز تخفت، بينما تزداد وضوحًا في مخ علوي.

فجأة، ارتفع نبض فايز بشكل حاد.

صاح حسني:

- توقف! الضغط يرتفع!

لكن فايز رفع يده بصعوبة وقال:

- لا.. أكمل. لا تتوقف.

نظر يوسف إلى حسني بتردد، ثم استمر تحت إشارة من فايز نفسه. بعد عشرين دقيقة إضافية، أعلن يوسف:

- اكتمل النقل. تسعون بالمئة من القضبان انتقلت بنجاح.

أطفئت أجهزة الليزر. ساد صمت ثقيل في الغرفة.

نظر حسني إلى وجه فايز. كان شاحبًا جدًا، وعيناه مفتوحتان تحدقان في السقف بتعبير فارغ للحظة، قبل أن يرتسم عليه شيء يشبه الابتسامة الضعيفة.

همس فايز:

- انتهينا.. الآن ننتظر.

على المنضدة الأخرى، كان علوي حافظ ما يزال هادئًا، لكن أجهزة المراقبة أظهرت نشاطًا جديدًا في مخه لم يكن موجودًا منذ سنوات.

خرج الثلاثة من الغرفة واحدًا تلو الآخر. آخر من خرج كان فايز. توقف عند الباب ونظر خلفه مرة أخيرة إلى المنضدتين، ثم أغلق الباب برفق.

في تلك اللحظة، لم يكن أحد يعلم أن شيئًا ما قد بدأ يتحرك في الظلام داخل رأسه.

الفصل السابع

اللحظات الأولى بعد العملية

بعد ساعتين من انتهاء العملية، نُقل علوي حافظ إلى غرفة الإفاقة الخاصة. كان ما يزال تحت تأثير المخدر، لكن أجهزة المراقبة أظهرت نشاطًا دماغيًا منتظمًا لم يُرَ عنده منذ سنوات طويلة.

جلس الدكتور فايز شهدي على كرسي في زاوية الغرفة، يراقب الشاشات. كان وجهه شاحبًا، ويداه ترتجفان خفيفًا كلما حاول الإمساك بكوب الماء. حسني كان يقف إلى جانبه، يقيس ضغطه كل عشر دقائق.

قال حسني بصوت منخفض:

- النبض عندك أسرع من المعتاد. هل تشعر بأي شيء غريب؟

هز فايز رأسه:

- مجرد إرهاق. سيمر.

في الساعة الثالثة بعد الظهر، بدأ علوي يتحرك. فتحت عيناه ببطء، ونظر حوله بذهول. لأول مرة منذ خمس سنوات، لم تكن نظرته فارغة. كان هناك وعي حقيقي فيهما.

حاول أن يتكلم. خرج صوته أجشًا ومكسورًا:

- أين.. أنا؟

اقتربت الممرضة سلوى بسرعة، لكن فايز رفع يده وأوقفها. اقترب هو بنفسه من السرير وقال بهدوء:

- أنت في المستشفى يا علوي. العملية نجحت. كيف تشعر؟

نظر إليه علوي لحظة طويلة، كأنما يحاول تذكر وجهه. ثم قال بصوت أوضح هذه المرة:

- أشعر.. أن رأسي خفيف. وأنني أفكر بوضوح. منذ متى وأنا نائم؟

ابتسم فايز ابتسامة متعبة:

- نمت طويلاً. لكنك الآن مستيقظ.

خرج فايز من الغرفة بعد دقائق، وتبعه حسني. في الممر قال حسني بفرحة مكتومة:

- لقد نجحنا! انظر إليه.. يتكلم بوعي كامل!

لكن فايز لم يبتسم. توقف عند النافذة ووضع يده على الجدار وقال بصوت خافت:

- شيء ما.. ليس على ما يرام.

نظر إليه حسني بقلق:

- ماذا تقصد؟

- عندما نظرت إليه وهو يتكلم.. شعرت كأن جزءًا مني ينظر من خلال عينيه. لحظة واحدة فقط. ثم اختفت.

صمت حسني لحظة ثم قال:

- أنت مرهق. غدًا ستشعر بتحسن.

هز فايز رأسه ولم يجب. عاد إلى مكتبه وأغلق الباب. جلس خلف المكتب، وأخرج الدفتر الأسود، وكتب بجهد واضح:

«العملية نجحت ظاهريًا. علوي يستعيد وعيه. لكنني أشعر بفراغ غريب في رأسي. وكأن شيئًا ما يراقبني من الداخل.»

أغلق الدفتر، وأسند رأسه إلى يديه.

خارج النافذة، كانت الشمس تغرب، وتلقي بظلال طويلة على جدران المستشفى.

وفي مكان ما داخل رأس فايز، بدأت أول هلوسة خفيفة تتشكل: الغرفة تدور ببطء حوله، ثم تعود إلى مكانها.

فتح عينيه فجأة، ونظر حوله بذعر لثانية واحدة.

ثم همس لنفسه:

- مجرد إرهاق.. مجرد إرهاق.

لكنه كان يعلم، في أعماق نفسه، أن الأمر قد بدأ.

بهذا ينتهي الجزء الأول.

الفصل الثامن

شفاء علوي

في صباح اليوم الثالث بعد العملية، كان علوي حافظ يجلس على سريره وقد رفع رأسه مستندًا إلى الوسائد. كان يأكل إفطاره بنفسه لأول مرة منذ سنوات، ويبتسم للممرضة سلوى وهي ترتب الغرفة.

عندما دخلت زوجته حاملاً باقة ورد صغيرة، انهمرت دموعها فور رؤيته.

نهض علوي ببطء، وفتح ذراعيه. عانقها بقوة، وهمس في أذنها:

- أنا عدتُ يا حبيبي.. أنا عدت حقًا.

جلست إلى جانبه تمسك بيده، وهي لا تكاد تصدق. سألته عن كل شيء: هل يتذكر اسمها؟ هل يتذكر الأولاد؟ هل يشعر بأي ألم؟

كان يجيب بوضوح وهدوء، ويضحك أحيانًا من دهشتها. قال لها:

- أشعر وكأنني استيقظت من كابوس طويل. رأسي صافٍ تمامًا. أستطيع أن أفكر.. وأن أتذكر كل شيء.

في الممر خارج الغرفة، وقف الدكتور فايز شهدي والدكتور حسني النجوى يراقبان المشهد من خلال الزجاج. حسني كان مبتسمًا بفرح حقيقي، أما فايز فكان صامتًا، يضع يديه في جيبي الرداء الأبيض.

قال حسني بصوت خافت:

- انظر إليه. هذا معجزة. لقد استعاد وعيه بالكامل في ثلاثة أيام فقط.

هز فايز رأسه ببطء:

- نعم.. معجزة.

لكن عينيه لم تكن تعكس الفرح نفسه. كان يراقب علوي وهو يتحدث ويضحك، ويشعر في كل لحظة أن شيئًا ما ينقصه. فراغ صغير في مؤخرة رأسه، ينمو ببطء كلما ابتسم المريض.

دخلت زوجة علوي بعد قليل، وتوجهت مباشرة إلى فايز. أمسكت بيده وقالت والدموع ما تزال في عينيها:

- أشكرك يا دكتور.. أشكرك من كل قلبي. لقد أعدتَ إليّ زوجي.

ابتسم فايز ابتسامة قصيرة ومجعّدة وقال:

- هذا واجبي.

ابتعدت الزوجة عائدة إلى الغرفة، وبقي الرجلان في الممر. التفت حسني إلى فايز وقال بقلق هذه المرة:

- أنت شاحب جدًا. هل نمت الليلة الماضية؟

- قليلًا.

- هل ما زلت تشعر بذلك الفراغ؟

صمت فايز لحظة، ثم قال بصوت منخفض:

- أصبح أوضح. عندما أنظر إلى علوي وهو يتكلم بوعي كامل.. أشعر كأن جزءًا من تفكيري يُستخدم هناك. لحظة قصيرة، ثم يختفي.

وضع حسني يده على كتفه:

- أنت تحتاج إلى راحة. اذهب إلى البيت اليوم. سأبقى أنا أراقب علوي.

هز فايز رأسه:

- لا. سأبقى. أريد أن أتأكد أن كل شيء مستقر.

عاد إلى مكتبه بعد قليل. أغلق الباب، وجلس خلف المكتب، وأخرج الدفتر الأسود. كتب بجهد واضح، وخطه أقل ثباتًا من الأيام السابقة:

«علوي يتحسن بسرعة مذهلة. يتكلم، يضحك، يتذكر. أما أنا.. فأنا أشعر أنني أخسر شيئًا مع كل ساعة تمر. الفراغ يكبر.»

أغلق الدفتر، ونظر إلى يديه. كانتا ترتجفان خفيفًا.

خارج النافذة، كانت أشعة الشمس تضيء حديقة المستشفى، حيث كان بعض المرضى يتنزهون بهدوء.

أما داخل رأس فايز، فقد بدأت الغرفة تدور مرة أخرى.. ببطء هذه المرة، لكن بوضوح أكبر.

الفصل التاسع

الأيام الأولى لفايز

في الليلة الرابعة بعد العملية، استيقظ الدكتور فايز شهدي فجأة في سريره داخل شقته.

كانت الغرفة تدور.

ليست دورانًا سريعًا أو عنيفًا، بل بطيئًا ومنتظمًا، كأن الجدران تتحرك في دائرة واسعة حوله. السرير يهتز خفيفًا، والسقف يقترب ثم يبتعد. أمسك بحواف الفراش بقوة وأغلق عينيه، لكن الدوران استمر خلف جفنيه.

فتح عينيه مرة أخرى بعد دقائق طويلة. توقفت الغرفة فجأة، وعادت كل الأشياء إلى أماكنها. كان قلبه يدق بعنف، وعرق بارد يغطي جبينه.

همس لنفسه بصوت مبحوح:

- مجرد إرهاق.. مجرد إرهاق.

لكنه كان يعلم أن الأمر ليس كذلك.

نهض بصعوبة، وأشعل النور، ونظر إلى وجهه في المرآة. كان شاحبًا، وعيناه محمرتين، وفي زاوية نظره اليمنى بدا له أن الجدار يتحرك للحظة قبل أن يستقر.

في الصباح، ذهب إلى المستشفى كالمعتاد. مرّ على غرفة علوي حافظ، فوجده يجلس على الكرسي بجانب النافذة، يقرأ جريدة لأول مرة منذ سنوات. رفع علوي رأسه وابتسم له بصدق:

- صباح الخير يا دكتور. أشعر أنني ولدت من جديد.

ابتسم فايز ابتسامة آلية ورد التحية، ثم خرج بسرعة. في الممر، شعر فجأة أن الأرض تميل تحت قدميه. اتكأ على الحائط لحظة حتى مرت الموجة.

دخل مكتبه وأغلق الباب. أخرج الدفتر الأسود وكتب بخط مرتجف:

«الليلة الماضية: دوران الغرفة استمر قرابة أربع دقائق. هذا الصباح: ميلان الأرض. الفراغ في رأسي أصبح أكثر وضوحًا. كأن جزءًا من إدراكي للواقع قد نُقل.»

أغلق الدفتر ووضع يديه على وجهه.

طرق الباب. دخل حسني، ونظر إليه بقلق فوري:

- أنت لا تبدو بخير يا فايز. وجهك شاحب جدًا.

- لم أنم جيدًا.

- هل تكرر الشعور الغريب؟

صمت فايز لحظة، ثم قال بصوت منخفض:

- الغرفة دارت حولي الليلة الماضية. بوضوح تام. ولم يكن حلمًا.

تغير وجه حسني. أغلق الباب خلفه وقال بجدية:

- يجب أن نوقف كل شيء. نفحصك فورًا. قد نحتاج إلى إعادة بعض القضبان.

هز فايز رأسه بعناد:

- لا. علوي يتحسن بشكل مذهل. إذا تدخلنا الآن قد ندمر ما حققناه. سأتحمل. هذه أعراض مؤقتة فقط.

نظر إليه حسني طويلاً ثم قال:

- أنت تخاطر بنفسك أكثر مما ينبغي. راقب نفسك بدقة، وأخبرني بأي تغيّر جديد فورًا.

بعد أن خرج حسني، بقي فايز وحيدًا. نظر إلى المرآة الصغيرة المعلقة على الحائط. رأى وجهه، لكن للحظة قصيرة بدا له أن العينين اللتين تنظران إليه ليستا عينيه تمامًا.

أغمض عينيه بقوة حتى اختفت الصورة.

ثم همس:

- سأسيطر عليها.. كما سيطرت على كل شيء آخر.

لكن في أعماق رأسه، كان الدوران البطيء قد بدأ من جديد.

الفصل العاشر

التحقيق الداخلي

في اليوم السادس بعد العملية، استُدعي الدكتور فايز شهدي إلى مكتب مدير المستشفى.

كان المكتب فسيحًا، بإضاءة قوية ورائحة خشب قديم. جلس المدير خلف مكتبه الضخم، وهو رجل في أواخر الخمسينيات، ذو نظرة حادة ونظارات سميكة. إلى جانبه كان يجلس أحد أعضاء مجلس الإدارة، يحمل ملفًا سميكًا.

قال المدير بدون مقدمات:

- دكتور فايز، سمعنا عن تحسن المريض علوي حافظ المذهل. نريد تقريرًا كاملاً عن التجربة التي أجريتها.

ابتسم فايز ابتسامة مهنية هادئة، رغم أن رأسه كان يشعر بثقل غريب منذ الصباح:

- التجربة نجحت يا سيدي. نقلنا نسبة كبيرة من قضبان التحكم الذهني باستخدام تقنية الليزر الجديدة. المريض استعاد وعيه وإدراكه بالكامل خلال أيام قليلة.

فتح عضو المجلس الملف وقال:

- وهل هناك أي آثار جانبية؟ على المريض أو عليك أنت؟

شعر فايز أن الغرفة تميل قليلاً، لكنه ثبت نفسه على الكرسي وأجاب بثبات:

- لا آثار جانبية تُذكر. المريض في تحسن مستمر، وأنا بخير تمامًا. مجرد إرهاق طبيعي بعد العملية.

نظر المدير إليه بتمعن:

- التقارير الأولية تشير إلى أنك كنت المصدر. هذا يعني أنك تخليت عن جزء من قدراتك الذهنية. هل أنت متأكد أنك قادر على مواصلة عملك بكفاءة؟

أجاب فايز بسرعة أكبر مما ينبغي:

- تمامًا. قدراتي لم تتأثر. بل إنني أشعر أن التجربة فتحت آفاقًا جديدة للعلاج.

صمت الرجلان لحظة، ثم أغلق المدير الملف وقال:

- سنراقب الحالة عن كثب. أي تطور سلبي يجب أن يُبلَّغ فورًا. يمكنك الانصراف.

خرج فايز من المكتب بخطوات ثابتة، لكنه ما إن أغلق الباب خلفه حتى اتكأ على الحائط في الممر. دارت الجدران حوله مرة أخرى، أسرع هذه المرة. أغمض عينيه وعدّ إلى عشرة حتى توقفت.

عندما فتحهما، وجد حسني واقفًا أمامه بقلق واضح.

- رأيتك تخرج من مكتب المدير. ماذا حدث؟

- تحقيق روتيني. سألوا عن النتائج، وقلت إن كل شيء على ما يرام.

نظر حسني إلى وجهه الشاحب وقال بصوت خفيض:

- أنت تكذب عليهم.. وعليّ أيضًا. الأعراض تزداد، أليس كذلك؟

لم يجب فايز. سار نحو مكتبه، وتبعه حسني. داخل المكتب أغلق الباب وقال بحدة مكتومة:

- إذا اكتشفوا أنك تعاني من هلوسات، سيفتحون تحقيقًا رسميًا وقد يوقفون كل الأبحاث. أخبرني بالحقيقة الآن.

نظر فايز إليه بعينين متعبتين وقال:

- الغرفة تدور أكثر. وأحيانًا أشعر أنني أرى المشهد من مكانين في آن واحد: من هنا.. ومن داخل رأس علوي. لكنني أسيطر عليها. لا تقلق.

هز حسني رأسه يائسًا:

- أنت لا تسيطر على شيء يا فايز. أنت تغرق ببطء.

جلس فايز خلف المكتب وأخرج الدفتر الأسود. كتب بخط غير منتظم:

«اليوم كذبت على المدير. الأعراض تتفاقم. الدوران أصبح أقوى. والشعور بالانقسام يزداد. لكنني لن أتوقف. ليس بعد.»

أغلق الدفتر ونظر إلى حسني:

- غدًا سأفحص علوي بنفسي. أريد أن أتأكد أن كل شيء مستقر عنده على الأقل.

خرج حسني صامتًا، تاركًا فايز وحيدًا مع ظل الهلوسة التي كانت تنتظره في الزاوية المظلمة من الغرفة.

الفصل الحادي عشر

وجهة نظر علوي

في اليوم السابع بعد العملية، جلس علوي حافظ على حافة السرير، ينظر إلى يديه كأنهما ليستا يديه.

كان كل شيء حوله واضحًا بشكل مؤلم. ألوان الستائر، صوت خطوات الممرضة في الممر، رائحة المطهر المختلطة برائحة الورد الذي أحضرته زوجته. حتى نبضات قلبه كان يسمعها بوضوح داخل صدره.

قبل العملية، كان العالم ضبابًا كثيفًا. أصوات مشوشة، وجوه بلا ملامح، وأفكار تتطاير مثل أوراق في عاصفة. الآن، كان كل شيء حادًا ومنظمًا. كأن أحدًا قد أضاء مصباحًا قويًا داخل رأسه.

ابتسم لنفسه همسًا:

- أنا أفكر.. أنا أتذكر.. أنا موجود.

دخل الدكتور فايز شهدي في تلك اللحظة. لاحظ علوي فورًا أن وجه الطبيب شاحب، وأن عينيه محمرتان. شيء ما في نظرة فايز جعله يشعر بشعور غريب: كأنه يعرف ما يدور في ذهن الرجل قبل أن يتكلم.

قال فايز بصوت هادئ:

- كيف تشعر اليوم يا علوي؟

أجاب علوي بصدق:

- أشعر أنني أقوى مما كنت في حياتي. رأسي صافٍ تمامًا. أستطيع أن أركز على أي شيء أريده. حتى الذكريات القديمة عادت بوضوح.

توقف لحظة، ثم أضاف بحذر:

- لكن هناك شيء آخر.. أشعر أحيانًا كأن جزءًا من تفكيري ليس لي تمامًا. كأنه مستعار. هل هذا طبيعي؟

تجمد فايز للحظة. ثم أجبر نفسه على الابتسام وقال:

- هذا جزء من عملية الشفاء. المخ يحتاج وقتًا ليتأقلم مع النشاط الجديد. سيزول قريبًا.

بعد أن خرج الطبيب، بقي علوي وحيدًا. نظر من النافذة إلى الحديقة. رأى المرضى يتنزهون، والممرضات يتحركن، والطيور على الأشجار. وفجأة، شعر أنه يستطيع أن يتخيل ما يفكر فيه كل واحد منهم. ليس قراءة أفكار حقيقية، بل شعور غريب بالقرب منهم، كأنه يشاركهم جزءًا من وعيهم.

وضع يده على جبهته وهمس:

- ما الذي فعلوه بي بالضبط؟

في المساء، عندما جاءت زوجته، أخبرها بكل التفاصيل. ضحكت ودموعها تسيل من الفرح، وقالت إن الله قد استجاب دعاءها. لكنه لم يخبرها عن الشعور الغريب بالقوة الجديدة، ولا عن تلك اللحظات التي يشعر فيها أنه ينظر إلى العالم من خلال عيون أخرى.

في تلك الليلة، قبل أن ينام، نظر إلى السقف وقال لنفسه:

- أنا شُفيت.. لكنني لست وحدي داخل رأسي تمامًا.

وعلى الجانب الآخر من المستشفى، كان الدكتور فايز يكتب في دفتره الأسود بجهد واضح:

«علوي يشعر بالقوة. وأنا أشعر أن جزءًا مني يعيش الآن داخله. الانقسام بدأ يتضح.»

ثم أغلق الدفتر، وأطفأ النور، وانتظر الدوران الذي كان يعلم أنه قادم.

الفصل الثاني عشر

تدهور متسارع

في الليلة التاسعة بعد العملية، لم تعد الغرفة تدور فقط.

كان الدكتور فايز شهدي واقفًا أمام النافذة في شقته، عندما رأى الناس يقفزون.

من المباني المقابلة، من الشرفات، من أسطح العمارات البعيدة. أجساد تسقط في صمت غريب، تتباطأ في الهواء ثم تختفي قبل أن تصل إلى الأرض. تكرر المشهد عشرات المرات، كأن فيلمًا يعاد تشغيله أمام عينيه.

أغمض عينيه بقوة، وفركهما، وفتحهما مرة أخرى.

كان المشهد ما يزال هناك.

تراجع إلى الخلف حتى اصطدم بالطاولة. سقط الكوب الزجاجي وتحطم. الصوت الحاد أعاده للحظة إلى الواقع. اختفى القافزون فجأة، وعادت الأضواء العادية للمباني.

كان يتنفس بصعوبة، وعرقه يبلل قميصه. همس بصوت مبحوح:

- هذا ليس حقيقيًا.. هذا ليس حقيقيًا.

لكن يديه كانتا ترتجفان بعنف، ولم يستطع السيطرة عليهما.

في الصباح، ذهب إلى المستشفى متأخرًا. مرّ على غرفة علوي حافظ، فوجده يتحدث مع زوجته بحيوية واضحة. ضحك علوي عندما رآه وقال:

- دكتور فايز! أنت تبدو متعبًا. هل أنت بخير؟

أجاب فايز بصوت أجش:

- بخير.. مجرد ليلة سيئة.

لكن وهو يقف هناك، شعر فجأة أنه يرى المشهد من زاويتين في آن واحد: من مكانه قرب الباب، ومن عيني علوي نفسه. للحظة قصيرة، رأى وجهه هو من خلال عيني المريض: شاحب، متعب، وخائف.

تراجعت الرؤية المزدوجة بعد ثوانٍ، لكنه خرج من الغرفة بسرعة قبل أن يلاحظ أحد شيئًا.

دخل مكتبه وأغلق الباب بالمفتاح. أخرج الدفتر الأسود وكتب بخط شبه غير مقروء:

«الليلة الماضية: هلوسة قوية. الناس يقفزون من النوافذ. استمرت عدة دقائق. هذا الصباح: رؤية مزدوجة. أشعر أن وعيي ينقسم. الفراغ يكبر ويبتلعني.»

طرق الباب بعنف. صوت حسني:

- فايز! افتح. أعرف أنك هناك.

فتح الباب بعد تردد. دخل حسني ونظر إلى وجهه ثم إلى الدفتر المفتوح، وفهم كل شيء دون أن يقرأ.

قال بصوت منخفض وغاضب:

- الأعراض خرجت عن السيطرة. يجب أن نتدخل الآن. سأتصل بيوسف. نعيد بعض القضبان قبل أن يفوات الأوان.

هز فايز رأسه بعناد، رغم أن الغرفة كانت تبدأ بالدوران من جديد خلفه:

- لا. علوي في أفضل حالاته. إذا لمسنا أي شيء الآن قد نفقده مرة أخرى. سأتحمل. لديّ سيطرة كافية.

أمسك حسني بذراعه بقوة:

- أنت لا تمتلك أي سيطرة! انظر إلى نفسك. أنت تغرق، ورفضك للاعتراف سيهلكك.

دفع فايز يده برفق وقال:

- اتركني. أعرف ما أفعله.

خرج حسني غاضبًا، تاركًا الباب مفتوحًا. بقي فايز واقفًا في وسط المكتب، يراقب الجدران وهي تميل ببطء، والظلال التي بدأت تتشكل في الزوايا.

في تلك اللحظة، سمع صوتًا خافتًا داخل رأسه، صوتًا يشبه صوته هو، لكنه قادم من مكان بعيد:

«أنت لست وحدك بعد الآن.»

أغلق عينيه، وانتظر حتى يمر كل شيء.

لكنه كان يعلم أن الأمور لن تعود أبدًا إلى ما كانت عليه.

الفصل الثالث عشر

اكتشاف الحقيقة الجزئية

في صباح اليوم العاشر، دخل الدكتور حسني النجوى مكتب فايز دون أن يطرق الباب.

وجد زميله جالسًا خلف المكتب، يحدق في شاشة فارغة. وجهه كان أكثر شحوبًا من أي وقت مضى، وعيناه محاطتين بهالات سوداء عميقة. على الطاولة كان الدفتر الأسود مفتوحًا، والقلم ساقطًا إلى جانبه.

أغلق حسني الباب وقال مباشرة:

- انتهى الوقت يا فايز. يجب أن نتحدث بصراحة.

رفع فايز رأسه ببطء. صوته جاء أجشًا ومتعبًا:

- عن ماذا؟

- عن القضبان. عن العدد الحقيقي الذي فقدته. وعن الهلوسات التي تخفيها منذ أيام.

صمت فايز لحظة طويلة، ثم دفع الدفتر نحو حسني وقال:

- اقرأ.

فتح حسني الدفتر وقرأ الصفحات الأخيرة بسرعة. تغير وجهه تدريجيًا من القلق إلى الرعب. أغلقه بعنف وقال:

- تسعون بالمئة؟ أنت نقلت تسعين بالمئة من قضبان التحكم الذهني؟ كنت تخبرنا أنها نسبة محدودة!

هز فايز رأسه بهدوء غريب:

- لو نقلت أقل، لما شُفي علوي بهذا الشكل. مخه كان مدمرًا تمامًا. احتاج إلى كمية كبيرة ليعيد بناء وعيه.

وقف حسني ودار في الغرفة وهو يفرك جبينه:

- لهذا تتدهور بهذه السرعة. أنت لم تترك لنفسك إلا الحد الأدنى. الإدراك، السيطرة على الواقع، الإحساس بالذات.. كلها أصبحت ضعيفة لديك.

نظر فايز إلى يديه المرتجفتين وقال بصوت منخفض:

- وأحيانًا أشعر أن الجزء المفقود لم يختفِ. هو موجود هناك.. داخل علوي. عندما ينظر إليّ، أشعر أنه يراني من الداخل.

توقف حسني فجأة ونظر إليه:

- هل تقصد أن هناك تواصلًا؟ رابطًا ما زال قائمًا؟

- لا أعلم. لكن في لحظات الهلوسة، أسمع صوتًا يشبه صوتي، قادمًا من مكان بعيد. ويقول لي إنني لست وحدي.

جلس حسني أمامه وأمسك بذراعه:

- يجب أن نعيد جزءًا من القضبان فورًا. حتى لو أثر ذلك على علوي مؤقتًا. أنت على حافة الانهيار.

هز فايز رأسه بعناد هذه المرة أيضًا:

- لا. راقبت علوي هذا الصباح. هو في أفضل حالاته. يتكلم، يضحك، يخطط للمستقبل مع زوجته. إذا لمسنا أي شيء الآن، قد نعيده إلى الظلام. لن أفعل ذلك.

صمت الاثنان. ثم قال حسني بصوت يائس:

- أنت تضحي بنفسك من أجله. تمامًا كما حاولت أن تفعل مع منى. لكن منى ماتت، وأنت ما زلت هنا. لا تكرر المأساة.

عند ذكر اسم أخته، أغمض فايز عينيه لحظة. ثم فتحهما وقال بهدوء مخيف:

- هذه المرة مختلفة. هذه المرة سأنجح. حتى لو خسرت عقلي بالكامل.

خرج حسني من المكتب بعد قليل، وهو يعلم أنه فقد القدرة على إقناع صديقه. في الممر، التقى بيوسف زكي وأخبره بالأمر. قال يوسف بوجه متجهم:

- إذا استمر هكذا، سنفقده خلال أيام. يجب أن نفعل شيئًا.. حتى لو ضد إرادته.

داخل المكتب، كان فايز يكتب الجملة الأخيرة في الدفتر ذلك اليوم:

«اكتشفت الحقيقة. فقدت أكثر مما ينبغي. والرابط مع علوي ما يزال موجودًا. الآن أصبح الأمر مسألة وقت فقط.»

ثم أغلق الدفتر، ونظر إلى الجدار المقابل.

كان الجدار يبدأ بالتموج ببطء، كأنه بحر أسود يقترب.

الفصل الرابع عشر

نقطة اللاعودة

في ظهر اليوم الحادي عشر، كان الدكتور فايز شهدي يقف في غرفة الاجتماعات الصغرى، يشرح نتائج التجربة أمام مجموعة صغيرة من الأطباء وكبار الممرضين.

كان صوته ثابتًا في البداية، ويده تتحرك على الشاشة لتعرض الرسوم البيانية لنشاط مخ علوي حافظ قبل العملية وبعدها. الجميع يستمعون باهتمام واضح. حتى المدير كان حاضرًا هذه المرة.

قال فايز:

- كما ترون، النشاط الكهربائي عاد إلى مستوياته الطبيعية خلال أقل من أسبوع. المريض يستعيد وظائفه المعرفية بالكامل، وهذا يثبت أن تقنية نقل قضبان التحكم الذهني قابلة للتطبيق.

فجأة، توقفت يده في الهواء.

رأى الجدران تبدأ بالتموج. ثم رأى الناس في القاعة يقفزون من أماكنهم واحدًا تلو الآخر، يسقطون نحو السقف بدلاً من الأرض، بوجوه جامدة وأفواه مفتوحة. الصوت اختفى، وحل محله طنين حاد داخل رأسه.

حاول أن يتمالك نفسه. أغمض عينيه ثانية واحدة، وفتحهما.

كان الجميع ينظرون إليه بدهشة. المدير قال بصوت حاد:

- دكتور فايز؟ هل أنت بخير؟

حاول أن يجيب، لكن الكلمات خرجت مشوشة:

- أنا.. الغرفة.. تدور.

تراجع خطوة إلى الخلف، واصطدم بالكرسي. سقط على ركبتيه. رفع رأسه فرأى وجوه الزملاء تقترب منه، لكنها كانت وجوهًا مشوهة، تطول وتتقلص كأنها في مرآة مكسورة.

سمع صوت حسني من بعيد:

- أخلوا الغرفة! بسرعة!

شعر بأيدٍ تمسك بذراعيه وتحمله. رأى سقف الممر يمر فوقه بسرعة، ثم أبوابًا تُفتح وتُغلق. في لحظة ما، رأى وجه علوي حافظ يطل من إحدى الغرف، ينظر إليه بقلق حقيقي. وللحظة قصيرة جدًا، شعر أنه يرى المشهد من خلال عيني علوي نفسه: جسد الطبيب يُحمل على نقالة، والناس يركضون حوله.

ثم انقطع كل شيء.

عندما استعاد وعيه، كان مستلقيًا على سرير في غرفة العزل الصغيرة المخصصة للأطباء. حسني كان جالسًا إلى جانبه، ويوسف زكي يقف قرب الباب بوجه متجهم.

قال حسني بصوت منخفض ومرهق:

- انهارت أمام الجميع. المدير أمر بإيقافك عن العمل فورًا، وفتح تحقيقًا رسميًا في التجربة.

نظر فايز إلى السقف بعينين فارغتين وقال بصوت ضعيف:

- كم من الوقت مرّ؟

- ساعتان. كانت نوبة قوية. هلوسات بصرية وسمعية، وفقدان تام للسيطرة.

صمت فايز لحظة، ثم همس:

- هذه هي نقطة اللاعودة. أليس كذلك؟

هز حسني رأسه ببطء:

- نعم. الآن لم يعد بإمكاننا إخفاء أي شيء. وعليك أن تقرر: هل نحاول إعادة القضبان.. أم نتركك تغرق بالكامل؟

نظر فايز إلى يديه المرتجفتين، ثم إلى الباب، وقال بصوت بالكاد يُسمع:

- أريد أن أرى علوي أولاً. مرة أخيرة. قبل أن نفعل أي شيء.

خرج يوسف من الغرفة ليرتب الأمر. بقي حسني صامتًا، يراقب صديقه الذي كان يحدق في الفراغ، وكأن جزءًا كبيرًا منه قد رحل بالفعل إلى مكان آخر.

خارج النافذة الصغيرة، كانت الشمس تغرب، وتلقي بظلال طويلة تشبه قضبانًا سوداء على الجدار.

بهذا ينتهي الجزء الثاني.

الفصل الخامس عشر

الهوة السوداء

بدأت النوبة في منتصف الليل.

كان الدكتور فايز شهدي مستلقيًا على السرير في غرفة العزل، عندما شعر فجأة أن الأرض تختفي من تحته. ليس سقوطًا عاديًا، بل ابتلاعًا بطيئًا. الجدران تمددت إلى ما لا نهاية، والسقف ارتفع حتى اختفى في ظلام دامس. الهواء أصبح كثيفًا وثقيلًا، يضغط على صدره كأنه يحاول خنقه.

حاول أن يصرخ، لكن صوته خرج مكتومًا وبعيدًا، كأنما يصدر من شخص آخر في غرفة أخرى.

ثم فتحت الهوة.

رأى أمامه فجوة سوداء هائلة، تدور ببطء وتبتلع الضوء. من داخلها خرجت أصوات: همسات، صراخ مكتوم، وضحكات مشوهة. تعرف على أحد الأصوات فورًا. كان صوت أخته منى، يأتي من أعماق بعيدة:

- لماذا تركتني يا فايز؟ لماذا؟

حاول أن يبتعد، لكن جسده لم يعد يستجيب. شعر أنه ينجذب نحو الهوة، قدماه تنزلقان على أرض غير موجودة. حوله كانت وجوه المرضى القدامى تطفو في الهواء: علوي حافظ قبل العملية، والرجل الذي كسر علوي ذراعه، ومريضات كن يصرخن في الليالي القديمة. كلها تنظر إليه بعيون فارغة.

فجأة انقلبت الحواس.

الأصوات تحولت إلى ألوان: الصراخ أصبح أحمر قانيًا يصب في عينيه، والهمسات زرقاء باردة تلف جسده. اللمس أصبح صوتًا: شعور الملاءة تحت يده تحول إلى طنين حاد يؤلم أذنيه. والرائحة.. رائحة المطهر في الغرفة أصبحت طعمًا مرًا يملأ فمه حتى كاد يتقيأ.

رأى نفسه من الخارج.

رأى جسده يتشنج على السرير، عيناه مفتوحتان على آخرهما، وفمه مفتوح في صرخة صامتة. وفي اللحظة نفسها كان داخل الهوة، يسقط بلا نهاية. سمع صوتًا آخر، صوته هو، لكنه قادم من مكانين في آن واحد:

«أنت لست هنا.. أنت هناك أيضًا.. داخل علوي..»

حاول أن يتمسك بشيء. أي شيء. تذكر وجه حسني، تذكر الدفتر الأسود، تذكر وعده لمنى. لكن الذكريات نفسها بدأت تتفتت وتتحول إلى شظايا لامعة تسقط في الهوة معه.

استمرت النوبة ما لا يمكن قياسه بالوقت العادي.

عندما انحسرت أخيرًا، وجد نفسه مبللاً بالعرق، يتنفس بصعوبة، ويداه تمسكان بحواف السرير بقوة حتى أدمت أظافره راحة يديه. الغرفة عادت إلى شكلها الطبيعي، لكن الظلال في الزوايا كانت ما تزال تتحرك ببطء.

فتح الباب بهدوء. دخل حسني، وكان وجهه شاحبًا كأنه هو من مرّ بالنوبة. قال بصوت منخفض:

- سمعنا صراخك من الممر. استمرت أكثر من عشرين دقيقة هذه المرة.

نظر فايز إليه بعينين محمرتين وقال بصوت مبحوح تمامًا:

- رأيت الهوة.. ورأيت منى.. ورأيت نفسي من الخارج. وأحسست أن جزءًا مني يسقط إلى داخل علوي ولا يعود.

جلس حسني إلى جانب السرير وأمسك بيده المرتجفة:

- هذه كانت الأقوى. إذا تكررت بهذا الشكل، قد لا تعود إلينا أبدًا.

صمت فايز طويلاً، ثم همس وهو ينظر إلى السقف:

- الهوة ما تزال هناك. أنا أشعر بها. هي تنتظر فقط أن أغمض عيني مرة أخرى.

خارج النافذة الصغيرة، كان الليل دامسًا تمامًا، ولا نجم واحد يظهر في السماء.

الفصل السادس عشر

محاولة العكس

في صباح اليوم التالي للنوبة الكبرى، طلب الدكتور فايز شهدي أن يُنقل إلى مكتبه القديم لساعة واحدة فقط.

كان وجهه شاحبًا كالموت، وصوته بالكاد يُسمع، لكنه كان مصممًا. جلس خلف المكتب للمرة الأولى منذ أيام، وأمامه حسني ويوسف زكي. على الشاشة عرض صورًا مقطعية حديثة لمخه ومخ علوي حافظ جنبًا إلى جنب.

قال فايز بصوت ضعيف لكنه واضح:

- أقترح أن نعيد جزءًا من القضبان. ليس كلها.. ثلاثين بالمئة فقط. بما يكفي لأعود إلى السيطرة على نفسي، ودون أن نعيد علوي إلى حالته السابقة بالكامل.

نظر يوسف إلى الرسوم البيانية وقال بحذر:

- تقنيًا ممكن. أجهزة الليزر ما تزال جاهزة. لكن المخ ليس سلكًا كهربائيًا نعيد توصيله كما نشاء. بعد أحد عشر يومًا، تكيف مخ علوي مع الكمية الكبيرة. أي سحب مفاجئ قد يسبب انهيارًا عكسيًا.

أضاف حسني بوجه متجهم:

- والأهم من ذلك.. المدير أوقف كل التجارب رسميًا. أي تدخل جديد بدون موافقة مجلس الإدارة يعتبر مخالفة جسيمة. وقد نفقد ترخيصنا جميعًا.

رفع فايز عينيه المحمرتين وقال:

- إذا لم نفعل شيئًا، سأدخل الهوة في المرة القادمة ولا أخرج. أنتم رأيتما النوبة. أنتم تعلمون.

صمت الاثنان. ثم قال حسني بصوت منخفض:

- حتى لو وافقنا.. هل تعتقد أن علوي سيوافق؟ هو الآن رجل جديد. لديه زوجة وأولاد وخطط للمستقبل. هل نخبره أننا سنأخذ منه جزءًا من عقله الذي استعاده بصعوبة؟

ابتسم فايز ابتسامة مريرة:

- لهذا أريد أن أكلمه أنا. أشرح له الأمر بنفسي. هو يشعر بالرابط مثلي. ربما يفهم.

هز يوسف رأسه:

- المدير لن يسمح لك بالاقتراب منه الآن. أنت رسميًا موقوف وتحت الملاحظة الطبية.

وقف فايز بجهد واضح، واتكأ على المكتب وقال بحدة مفاجئة:

- إذن أنتم ترفضون. تتركونني أسقط لأنكم خائفون على مناصبكم وعلى سمعتكم.

قال حسني بألم:

- نحن نرفض لأننا لا نريد أن نفقدكما معًا. أنت وعلوي. إذا فشل العكس، قد نحصل على مريضين مدمرين بدلاً من واحد.

نظر فايز إليهما طويلاً، ثم قال بصوت هادئ ومخيف في هدوءه:

- إذن سأفعل ذلك بنفسي. بطريقة ما.

خرج يوسف من الغرفة وهو يهز رأسه. بقي حسني. اقترب من صديقه ووضع يده على كتفه وقال:

- لا تفكر في أي حماقة. الغرفة مراقبة، وأنت تحت الحراسة. أي محاولة للوصول إلى أجهزة الليزر ستُكتشف فورًا.

هز فايز رأسه دون أن ينظر إليه. جلس مرة أخرى وكتب في الدفتر الأسود بجهد كبير:

«رفضوا محاولة العكس. المدير، حسني، يوسف.. الجميع يختارون السلامة. الآن بقي خيار واحد فقط. يجب أن أصل إلى علوي.»

أغلق الدفتر ونظر من النافذة إلى مبنى العنبر الذي يرقد فيه علوي حافظ.

في عينيه كانت هناك عزيمة جديدة، مختلطة باليأس والهوس.

خارج الغرفة، كان الحارس يقف في الممر، لا يعلم أن العاصفة داخل رأس الطبيب قد اتخذت اتجاهًا جديدًا تمامًا.

الفصل السابع عشر

علوي يكتشف السر

في عصر ذلك اليوم، تمكن الدكتور فايز شهدي من الوصول إلى غرفة علوي حافظ.

استغل لحظة تغيير الحراسة، ودخل بهدوء مرتديًا رداءً أبيض قديمًا أخفاه تحت المعطف. كان علوي جالسًا قرب النافذة يقرأ كتابًا، وعندما رفع رأسه تجمد للحظة من دهشة رؤية الطبيب بهذا الشكل الشاحب والمنهك.

قال علوي بهدوء:

- دكتور فايز.. سمعت أنك مريض. لماذا أنت هنا؟

أغلق فايز الباب خلفه وجلس على الكرسي المقابل بصعوبة. نظر إلى علوي طويلاً ثم قال بصوت مبحوح:

- جئت لأخبرك بالحقيقة. كلها.

صمت علوي وانتظر. بدأ فايز يتكلم ببطء، يختار كلماته بعناية رغم الألم في رأسه:

- العملية لم تكن علاجًا عاديًا. نقلت إليك جزءًا كبيرًا من قضبان التحكم الذهني من مخي أنا. تسعين بالمئة. لهذا شُفيت بهذه السرعة. ولهذا أنا أنهار الآن.

تغير وجه علوي تدريجيًا. وضع الكتاب جانبًا ونظر إلى يديه، ثم إلى فايز، كأنما يحاول أن يرى الرابط غير المرئي بينهما. قال بصوت منخفض:

- لهذا أشعر أحيانًا أن جزءًا من تفكيري ليس لي.. ولهذا أراك في لحظات غريبة كأني أنظر من خارج جسدي.

هز فايز رأسه:

- نعم. الرابط ما يزال موجودًا. وعندما أدخل في الهلوسة، أشعر أن جزءًا مني يسقط نحوك.

وقف علوي ودار في الغرفة بخطوات سريعة. كان واضحًا أنه يصارع مشاعر متضاربة. أخيرًا توقف أمام فايز وقال بصوت مختلط بالذنب والقوة في آن واحد:

- أنت ضحيت بعقلك من أجلي. وأنا الآن أعيش بفضل ما أخذته منك. كيف لم تخبرني من قبل؟

- لأنك كنت سترفض. ولأنني كنت أعتقد أنني قادر على التحمل.

نظر علوي إليه بعينين لامعتين وقال:

- أشعر بالذنب.. نعم. لكنني أشعر أيضًا بقوة لم أعرفها من قبل. كأنني أصبحت أكثر مما كنت. ذكيًا، مركزًا، قادرًا على رؤية الأشياء بوضوح لم أحلم به. وأنت.. أنت تموت ببطء بسبب ذلك.

اقترب فايز منه وقال بصوت ضعيف:

- لهذا أريد أن نعيد جزءًا من القضبان. ثلاثين بالمئة فقط. بما يكفي لأنجو، ودون أن تفقد أنت كل شيء.

صمت علوي طويلاً. نظر من النافذة إلى الحديقة حيث كانت زوجته تنتظره في الزيارة المسائية، ثم عاد ببصره إلى فايز. قال أخيرًا:

- إذا فعلنا ذلك.. هل أعود إلى الظلام الذي كنت فيه؟

- لا أحد يعلم بالتأكيد. لكن المخ تكيف. ربما تفقد جزءًا من الوضوح فقط.

Pan علوي رأسه ببطء، ثم قال بصوت حاسم:

- لا أستطيع أن أقرر الآن. أحتاج إلى وقت. وأنت تحتاج إلى راحة قبل أن تنهار تمامًا هنا أمامي.

في تلك اللحظة سُمع صوت خطوات سريعة في الممر. الباب فُتح بعنف، ودخل حسني مع اثنين من الممرضين. نظر إلى فايز بغضب وخوف معًا وقال:

- قلت لك لا تقترب منه! أخرجوه فورًا.

بينما كان الممرضون يسندون فايز نحو الباب، نظر علوي إليه مرة أخيرة وقال بصوت واضح يسمعه الجميع:

- سأفكر في الأمر يا دكتور. لن أتركك تسقط وحدك.. إذا كان هناك حل.

خرج فايز وهو يبتسم ابتسامة ضعيفة ومرهقة. في الممر همس لحسني:

- هو يعرف الآن. والرابط أقوى مما توقعت.

أما علوي، فقد بقي واقفًا في وسط الغرفة بعد رحيلهم، يضع يده على جبهته، ويشعر للمرة الأولى بثقل ما يحمله داخل رأسه: شفاءه هو، وجنون الرجل الذي منحه إياه.

الفصل الثامن عشر

تدخل خارجي

في صباح اليوم التالي، وصل إلى المستشفى وفد غير متوقع.

ثلاثة رجال ببدلات داكنة، يحملون بطاقات تعريف من «شركة النور للأدوية والأبحاث المتقدمة»، ومعهم ممثل عن جهة أمنية رفيعة لم يُكشف اسمها. طلبوا اجتماعًا فوريًا مع المدير، وأُغلق باب مكتبه لأكثر من ساعة.

عندما خرج المدير، كان وجهه شاحبًا ومتوترًا. استدعى حسني ويوسف فورًا، وقال لهما بصوت منخفض:

- إنهم يعرفون كل شيء عن تجربة قضبان التحكم الذهني. يريدون الاستيلاء على التقنية، والأجهزة، وكل الملفات. ويعرضون تمويلًا ضخمًا مقابل الحقوق الحصرية.

نظر حسني بذهول:

- كيف عرفوا؟ التجربة كانت سرية تمامًا داخل المستشفى.

هز المدير رأسه:

- أحدهم سرب المعلومات بعد انهيار فايز في غرفة الاجتماعات. الآن الأمر خرج عن سيطرتنا. الجهة الأمنية تعتبر التقنية «مصلحة قومية»، والشركة ترى فيها مليارًا من الأرباح.

في غرفة العزل، كان فايز يستمع إلى كل ذلك من حسني الذي جاء ليخبره بنفسه. ابتسم فايز ابتسامة مريرة وقال:

- إذن وصلوا أخيرًا. كنت أعلم أن شيئًا كهذا سيحدث عاجلاً أم آجلاً.

قال حسني بقلق:

- إنهم يريدون نقلك إلى منشأة خاصة بهم «للحماية والمتابعة». ويرفضون أي محاولة لإعادة القضبان بدون موافقتهم. ويقولون إن علوي أصبح «أصلًا بحثيًا» لا يمكن المساس به.

تغير وجه فايز. حاول أن ينهض لكنه فشل. قال بصوت أجش:

- لن أتركهم يستخدمون علوي كفأر تجارب. ولا أتركهم يأخذون ما تبقى من عقلي ليحولوه إلى سلاح أو دواء يباع.

في الوقت نفسه، في غرفة علوي، دخل أحد رجال الشركة بابتسامة مهنية باردة. قدم نفسه كـ«مستشار طبي»، وبدأ يسأل عن شعوره بالتفصيل: هل يشعر بقوى إضافية؟ هل يستطيع التركيز لفترات طويلة؟ هل يلاحظ أي تغيرات في الإدراك؟

أجاب علوي بحذر، لكنه شعر فورًا أن الرجل لا يهتم بشفاؤه كإنسان، بل كظاهرة. بعد خروج المستشار، همس علوي لزوجته:

- هؤلاء لا يريدون مساعدتي. يريدون ما داخل رأسي.

في المساء، تمكن حسني من ترتيب لقاء سريع بين فايز وعلوي مرة أخرى، تحت حراسة مشددة. قال فايز بسرعة:

- الشركة والجهة الأمنية يريدان التقنية. إذا وقعت في أيديهم، سيحولونها إلى أداة للسيطرة على العقول. يجب أن نفعل شيئًا قبل أن ينقلوني.

نظر علوي إليه بجدية وقال:

- أنا أشعر بالرابط أقوى اليوم. أحيانًا أرى ما تراه في هلوساتك للحظة. إذا قررت أن نعيد جزءًا من القضبان.. أنا موافق. حتى لو خسرت بعض الوضوح. لن أكون السبب في سقوطك، ولن أدعهم يستخدموننا.

ابتسم فايز ابتسامة ضعيفة وامتنان حقيقي هذه المرة. همس:

- إذن لدينا فرصة أخيرة. الليلة.. قبل أن يتحركوا.

خارج المستشفى، كانت سيارات سوداء تنتظر في الظلام، ورجال يراقبون المداخل والمخارج.

والساعة كانت تشير إلى أن الوقت ينفد بسرعة.

الفصل التاسع عشر

تحالف هش

في ساعة متأخرة من تلك الليلة، نجح حسني في إخراج فايز من غرفة العزل تحت ذريعة «فحص طبي عاجل».

اصطحبه عبر ممرات خلفية إلى غرفة صغيرة مهجورة في الطابق السفلي، حيث كان علوي ينتظرهما بالفعل. كان يوسف زكي يقف عند الباب يحرس، ويتصبب عرقًا من التوتر.

جلس الثلاثة حول طاولة قديمة مغطاة بالغبار. وجه فايز كان شاحبًا كالموت، لكن عينيه تلمعان بشيء من الأمل لأول مرة منذ أيام. علوي كان هادئًا ومركزًا، وحسني يبدو كمن يحمل العالم على كتفيه.

قال فايز بصوت ضعيف لكنه حاسم:

- لدينا ساعات قليلة قبل أن ينقلوني إلى منشأة الشركة. إذا أردنا إعادة جزء من القضبان، فيجب أن نفعل ذلك الليلة. باستخدام أجهزة الليزر في غرفة العمليات رقم 6.

نظر علوي إليه وقال:

- أنا موافق. أخبرتك ذلك. لكنني أريد أن أفهم المخاطر بوضوح. كم سأفقد من هذا الوضوح الذي أعيشه الآن؟

أجاب يوسف من عند الباب بصوت منخفض:

- لا أحد يعلم بالضبط. المخ ليس آلة. قد تفقد عشرين بالمئة من التركيز، أو أكثر. وقد لا تفقد شيئًا يذكر إذا تكيف جيدًا. لكن البديل هو أن يتحول فايز إلى جثة حية خلال أيام، وأن تقع التقنية في أيدي من سيسيئون استخدامها.

صمت الجميع لحظة. ثم قال حسني:

- المشكلة الأكبر هي الوصول إلى الغرفة. الكاميرات تعمل، والحراسة مشددة بسبب الوفد الخارجي. وإذا اكتشفوا الأمر، سيتهموننا جميعًا بسرقة أصول بحثية.

ابتسم فايز ابتسامة متعبة:

- لهذا نحن هنا. تحالف من ثلاثة رجال يائسين ومخترع مرهق. سنتحرك في الساعة الثالثة فجرًا، عندما تكون المناوبة في أضعف حالاتها. يوسف يعطل الكاميرات لسبع دقائق فقط. حسني ينقلني، وعلوي يأتينا بمفرده كأنه يتنزه بسبب الأرق.

نظر علوي إلى الاثنين وقال بصوت هادئ:

- أنا أشعر بالرابط الآن بقوة. إذا بدأت الهلوسة أثناء العملية، قد أستطيع أن أثبتك من الداخل.. بطريقة ما. لا أدري كيف، لكنني أشعر أنني قادر على ذلك.

وضع حسني يده على كتف فايز وقال بصدق:

- هذا التحالف هش جدًا. أي خطأ بسيط سينتهي بنا جميعًا في السجن أو أسوأ. لكنني معكم. لن أتركك تسقط وحدك يا فايز.

هز فايز رأسه امتنانًا، ثم أخرج من جيبه ورقة صغيرة كتب عليها خطوات العملية العكسية بخط مرتجف. وضعها على الطاولة وقال:

- نبدأ بنقل عشرين بالمئة فقط. إذا نجحت واستقرت حالتي، نتوقف. إذا احتجت المزيد، نقرر في اللحظة.

وافق الجميع بصمت.

قبل أن ينصرفوا، نظر علوي إلى فايز وقال جملة أخيرة:

- مهما حدث الليلة.. أشكرك على ما فعلته. حتى لو كان الثمن باهظًا.

ابتسم فايز ابتسامة حقيقية هذه المرة، رغم الألم:

- وأنت أنقذتني من الهوة مرتين حتى الآن. مرة عندما وافقت، ومرة عندما شعرت بالرابط.

خرجوا واحدًا تلو الآخر في ظلام الممرات الخلفية.

فوقهم، في الطوابق العليا، كان رجال الشركة الأمنيون يراجعون الجداول ويعدون لعملية النقل الصباحية.

ولم يكن أي منهم يعلم أن ثلاثة رجال قد عقدوا تحالفًا أخيرًا تحت الأرض، وأن الساعة بدأت تعد تنازليًا نحو الساعة الثالثة فجرًا.

الفصل العشرون

المواجهة داخل العقل

في الساعة الثانية والنصف فجرًا، بينما كان الثلاثة يتحركون في الممرات الخلفية نحو غرفة العمليات رقم 6، انفتح باب الهوة داخل رأس فايز دون إنذار.

سقط.

هذه المرة لم تكن الغرفة هي التي تدور، بل العالم كله. وجد نفسه فجأة في ممر المستشفى القديم الذي ماتت فيه منى. الجدران تقطر ماءً أسود، والأضواء تومض كعيون محتضرة. سمع خطى خلفه، فالتفت فرأى نفسه هو: نسخة شاحبة منه ترتدي رداء الجراحين، تنظر إليه بعيون فارغة.

قالت النسخة بصوته:

- أنت تأخرت كثيرًا. هي في الغرفة الأخيرة تنتظرك.

ركض نحو الغرفة. فتح الباب فرأى منى جالسة على السرير، لكنها لم تكن منى الفتاة. كان وجهها وجه علوي حافظ، وعيناها عيناه هو. قالت بصوت مختلط:

- لماذا أعطيتني كل شيء ثم جئت لتأخذه؟

حاول أن يتكلم، لكن الكلمات تحولت إلى طعم مر في فمه. حوله بدأت الذكريات تتساقط كأوراق محترقة: لحظة توقيع زوجة علوي على الأوراق، صوت الليزر في غرفة العمليات، وجه حسني وهو يحذره، الناس يقفزون من النوافذ، الهوة السوداء وهي تبتلعه.

فجأة انقسم المشهد إلى نصفين.

في النصف الأيمن كان يرى نفسه الحقيقي يُحمل على ذراعي حسني في الممر المظلم، ويوسف يفتح باب غرفة العمليات. وفي النصف الأيسر كان ما يزال داخل الهوة، يسقط نحو وجه منى/علوي الذي يبتسم ابتسامة حزينة.

سمع صوت علوي الحقيقي هذه المرة، قادمًا من مكان قريب وبعيد في آن واحد:

- أنا هنا يا دكتور. أمسك بي.

شعر بشيء يشبه يدًا تمسك بوعيه من الداخل. للحظة قصيرة استقرت الرؤية. رأى غرفة العمليات الحقيقية: الأضواء البيضاء، أجهزة الليزر، المنضدتان. حسني يثبته على إحداهما، وعلوي يستلقي على الأخرى بوجه مصمم.

لكن الهوة عادت أقوى.

انفتح السقف فوقهم، وخرجت منه أجساد المرضى القدامى، وأختها منى، ونسخ متعددة من نفسه هو، كلها تسقط نحوه وتلامس وجهه بأصابع باردة. الصوت أصبح ألوانًا مرة أخرى، والألوان أصبحت صراخًا. شعر أنه يتمزق بين مكانين: جسده على المنضدة، ووعيه في القاع الأسود.

همس وهو يتشنج:

- أبدأوا.. بسرعة.. قبل أن أضيع تمامًا.

سمع صوت يوسف البعيد يشغّل الأجهزة. طنين الليزر اخترق الهلوسة كخيط من نور حقيقي. شعر بجزء من الفراغ داخل رأسه يتحرك، كأن شيئًا يُسحب ببطء إلى الخارج.

وفي اللحظة نفسها، داخل الهوة، رأى علوي يقف أمامه فجأة. ليس وجهه فقط، بل علوي كاملًا، يمد يده ويقول:

- خذ ما تحتاجه. لكن لا تسقط أكثر.

أمسك باليد.

للحظة واحدة اختلط الواقعان تمامًا: غرفة العمليات والهوة، الذكريات والحاضر، صوته وصوت علوي. ثم بدأ النور يزداد، والظلام ينحسر ببطء.

عندما فتح عينيه الحقيقية مرة أخرى، كان طنين الليزر ما يزال يملأ الغرفة، وحسني يمسح العرق عن جبينه، وعلوي ينظر إليه من المنضدة الأخرى بعينين مفتوحتين وواعيتين.

همس فايز بصوت مبحوح تمامًا:

- ما زلت هنا.. لم أسقط.

لكنه كان يعلم أن المواجهة داخل العقل لم تنتهِ بعد. الهوة كانت ما تزال مفتوحة في مكان ما، تنتظر الجولة التالية.

الفصل الحادي والعشرون

الانهيار الكامل

استمرت عملية النقل العكسي سبع دقائق فقط.

كان يوسف يضبط الترددات بيد مرتجفة، وحسني يراقب العلامات الحيوية لفايز وكأنه يراقب قنبلة موقوتة. على المنضدة الأخرى كان علوي يقبض على حوافها بقوة، وعيناه مغلقتان، كأنما يحاول أن يمسك بوعي فايز من الداخل عبر الرابط الذي بينهما.

في الدقيقة السابعة، صرخ فايز.

لم يكن صراخًا عاديًا. كان صوتًا مبحوحًا وطويلاً، كأنه يخرج من أعماق بعيدة. تشنج جسده بعنف، وارتفع ظهره عن المنضدة، وعيناه انفتحتا على آخرهما دون أن ترى شيئًا في الغرفة.

صاح حسني:

- أوقف كل شيء! فورًا!

أطفأ يوسف الأجهزة. لكن الضرر كان قد وقع. سقط فايز في نوبة كاملة هذه المرة. رغوة بيضاء ظهرت على فمه، وأطرافه تضرب الهواء بعنف. رأى في تلك اللحظة كل شيء دفعة واحدة: الهوة وهي تبتلعه بالكامل، منى وهي تمتد يدها ثم تتلاشى، علوي وهو ينظر إليه من بعيد ثم يبتعد، والناس يقفزون من كل نوافذ العالم في الوقت نفسه.

حاول حسني تثبيت رأسه، بينما كان يوسف يحقنه بمهدئ قوي. بعد دقيقتين من التشنجات العنيفة، استرخى الجسد فجأة، وراحت العينان تحدقان في السقف بفراغ تام.

همس حسني وهو يقيس النبض:

- إنه حي.. لكن الوعي غير موجود. كأنه انطفأ.

في تلك اللحظة انفتح باب غرفة العمليات بعنف. دخل المدير مع أربعة من رجال الأمن التابعين للشركة، وممرضين. نظر المدير إلى المشهد – الأجهزة المشتغلة، علوي على المنضدة، فايز الهامد – ووجهه امتقع من الغضب.

قال بصوت بارد وقاتل:

- هذا تمرد. اعتقلوا الجميع. وانقلوا الدكتور فايز فورًا إلى العزل المشدد. والرجل الآخر – أشار إلى علوي – يُعاد إلى غرفته تحت حراسة مسلحة. لا أحد يقترب من هذه الأجهزة بعد الآن.

حاول حسني أن يشرح:

- كنا نحاول إنقاذه! النوبة كانت ستقتله!

لكن أحد رجال الأمن دفعه جانبًا بقوة. حُمل فايز على نقالة كأنه جثة، وعيناه ما تزالان مفتوحتين تحدقان في لا شيء. بينما كان يُخرج من الغرفة، مرّ أمام علوي للحظة. في تلك اللحظة القصيرة، شعر علوي بطعنة حادة داخل رأسه، كأن الرابط بينهما يُقطع بعنف أو يُشد حتى يكاد ينقطع.

صرخ علوي هذه المرة:

- لا تأخذوه! هو ما يزال هناك.. أنا أشعر به!

لكن أحدًا لم يسمع. أُخرج الجميع.

في غرفة العزل المشدد، ثُبت فايز إلى السرير بأشرطة جلدية قوية. حقن بمهدئات إضافية، وأُغلقت الكاميرات عليه على مدار الساعة. حسني ويوسف أُخذا للتحقيق، وعلوي أُعيد إلى غرفته وسط دموع زوجته التي لم تفهم شيئًا مما يحدث.

في الساعة الخامسة فجرًا، كان كل شيء قد انتهى.

فايز فاقد للوعي تمامًا، محاط بجدران بيضاء وكاميرات، والهوة السوداء مفتوحة على مصراعيها داخل رأسه، تبتلع ما تبقى منه ببطء.

وخارج المستشفى، كانت السيارات السوداء تستعد لنقل الملفات والأجهزة مع أول ضوء للصباح.

بهذا ينتهي الجزء الثالث.

الفصل الثاني والعشرون

آخر محاولة

مرّ يومان كاملان على الانهيار.

في غرفة العزل المشدد، كان الدكتور فايز شهدي ما يزال مثبتًا إلى السرير، يفتح عينيه أحيانًا لساعات طويلة دون أن يتعرف على أحد. الهلوسات أصبحت مستمرة الآن: الهوة، منى، القافزون، والشعور الدائم بأنه يسقط داخل رأس شخص آخر.

في الطابق العلوي، كان علوي حافظ يعاني بطريقته. الرابط لم ينقطع تمامًا. كان يستيقظ مفزوعًا في الليل وهو يرى ما يراه فايز، ويشعر بالفراغ الأسود يلمسه من الداخل. فقد جزءًا من وضوحه السابق، وأصبح شاحبًا وقلقًا.

في الليلة الثالثة، نجح حسني ويوسف في رشوة أحد الحراس وتأمين عشرين دقيقة فقط.

دخلا غرفة العزل مع علوي. كان الوقت بعد منتصف الليل، والكاميرات معطلة مؤقتًا. حملوا فايز بصعوبة إلى نقالة متحركة، وساروا به عبر الممرات الخلفية للمرة الأخيرة نحو غرفة العمليات رقم 6.

قال حسني وهو يتنفس بصعوبة:

- هذه آخر فرصة. إذا فشلنا الليلة، لن نتمكن من الاقتراب منه مرة أخرى. الشركة تنقل الأجهزة غدًا عند الفجر.

أُلقي فايز على المنضدة. عيناه كانتا مفتوحتين تحدقان في السقف، لكن لا أحد يعلم إن كان يسمعهم. استلقى علوي على المنضدة المجاورة دون تردد هذه المرة. قال بصوت هادئ:

- افعلوا ما يجب. حتى لو خسرت كل شيء. لن أتركه في الهوة وحدي.

بدأ يوسف بتشغيل أجهزة الليزر بيد مرتجفة. ضبط الترددات على وضع عكسي كامل هذه المرة. قال وهو يراقب الشاشات:

- سأحاول إعادة أكبر كمية ممكنة. إذا كان هناك أي قضيب ما يزال قابلاً للنقل.. سأعيده.

اشتغل الطنين. امتلأت الشاشات بنقاط زرقاء باهتة تتحرك ببطء من مخ علوي نحو مخ فايز. مرت دقائق ثقيلة. فجأة تشنج فايز مرة أخرى، لكن هذه المرة كان التشنج أقل عنفًا. فتح فمه وهمس بكلمات غير مفهومة.

أغلق علوي عينيه وركز بكل قوته على الرابط. شعر أنه يدفع شيئًا من داخله نحو الرجل الآخر. ذكريات، وضوح، جزء من السيطرة التي اكتسبها. في اللحظة نفسها، رأى داخل رأسه صورة الهوة وهي تبدأ بالانحسار قليلاً، ونورًا خافتًا يظهر في القاع.

صاح يوسف فجأة:

- النشاط يعود في مخ فايز! النسب ترتفع!

استمر النقل. خمس دقائق.. سبع.. عشر. ثم انخفضت القراءات فجأة. قال يوسف بصوت مبحوح:

- هذا كل ما يمكن. الباقي أصبح جزءًا من مخ علوي ولا يمكن فصله دون تدمير الاثنين.

أطفئت الأجهزة. ساد صمت ثقيل.

نظر حسني إلى وجه فايز. كانت العينان ما تزالان مفتوحتين، لكن شيئًا ما تغير فيهما. لم يعد الفراغ كاملاً. حركت شفتاه كلمة واحدة بالكاد تُسمع:

- منى..

ثم أغلق عينيه بهدوء، وانتظم تنفسه لأول مرة منذ أيام.

على المنضدة الأخرى، كان علوي يبكي بصمت. فقد جزءًا كبيرًا من الوضوح والقوة، لكنه كان يبتسم. قال وهو ينظر إلى فايز:

- هو عاد.. جزئيًا على الأقل. أشعر أن الهوة أغلقت قليلاً.

في الخارج، بدأت أصوات الحراس تقترب. كان عليهم أن يعيدوا فايز قبل أن يُكتشف الأمر.

حملوه مرة أخرى في الظلام، وهم يعلمون أن ما فعلوه الليلة قد يكون آخر شيء يستطيعون فعله من أجله.

وأن الغد سيحمل قرار الشركة النهائي.

الفصل الثالث والعشرون

الاختيار المستحيل

في صباح اليوم التالي، استعاد الدكتور فايز شهدي جزءًا من وعيه.

كان ما يزال ضعيفًا جدًا، ورأسه يشعر بثقل هائل، لكن الهوة لم تعد مفتوحة على مصراعيها. يستطيع أن يميز الوجوه الآن، وأن يسمع الكلام بوضوح نسبي. عندما دخل حسني إلى غرفة العزل، وجد فايز يحدق فيه بعينين متعبتين لكنهما حاضرتان.

قال فايز بصوت مبحوح:

- كم من الوقت.. متبقٍ؟

أجاب حسني بمرارة:

- ساعات. الشركة تنقل الأجهزة والملفات عند الظهر. وأنت معهم. قالوا إنهم سيكملون الأبحاث في منشأتهم الخاصة. وعلوي أيضًا سيُنقل «للمتابعة».

أغلق فايز عينيه لحظة، ثم فتحهما وقال بهدوء غريب:

- إذن حان وقت الاختيار.

نظر إليه حسني بقلق:

- أي اختيار؟

- إما أن أدعهم يأخذون التقنية ويحولونها إلى ما يريدون.. أو أدمرها بنفسي قبل أن تقع في أيديهم. حتى لو كان الثمن ما تبقى من عقلي.

صمت حسني. كان يعلم ما يعنيه ذلك. تدمير الأجهزة والملفات الرئيسية يعني أن أي أمل في إعادة المزيد من القضبان سيتلاشى إلى الأبد. ويعني أيضًا أن فايز سيستخدم آخر ما تبقى لديه من قوة ووعي في عمل قد يقتله.

قال حسني بصوت منخفض:

- أنت بالكاد تستطيع الجلوس. كيف ستدمر شيئًا؟

ابتسم فايز ابتسامة ضعيفة:

- لست بحاجة إلى قوة جسدية. أنا من صمم النظام. أعرف كيف أعطله من الجذور. يوجد رمز تدمير ذاتي في البرنامج الرئيسي. إذا أدخلته.. ستُحذف كل البيانات، وتُحرق الدوائر الأساسية لأجهزة الليزر.

دخل يوسف في تلك اللحظة، وسمع الجزء الأخير. قال بوجه شاحب:

- إذا فعلت ذلك، لن نتمكن أبدًا من إكمال شفائك. والشركة ستنتقم. قد يسجنوننا جميعًا.

نظر فايز إلى الاثنين وقال بصوت هادئ وحاسم:

- أفضل أن أسقط أنا، على أن أرى هذه التقنية تُستخدم للسيطرة على عقول الناس. منى ماتت لأننا لم نفهم المخ. لن أدعهم يحولون الفهم الجديد إلى سلاح.

صمت طويل. ثم قال حسني:

- وعلوي؟ هو ما يزال مرتبطًا بك. إذا دمرت كل شيء فجأة.. قد يتأثر.

- سأشرح له. هو يفهم الآن أكثر من أي شخص آخر.

في الساعة العاشرة صباحًا، تمكنوا من ترتيب لقاء أخير قصير مع علوي تحت أعين الحراس. همس فايز له بالحقيقة كلها في دقائق معدودة. استمع علوي بصمت، ثم أمسك بيد فايز وقال:

- افعل ما يجب. أنا سأتحمل نصيبي. لقد عشت أيامًا بوضوح لم أحلم به. هذا يكفي.

ابتسم فايز ابتسامة امتنان أخيرة. عندما أُعيد إلى غرفته، طلب ورقة وقلمًا. كتب بخط مرتجف لكنه مقروء سلسلة طويلة من الأرقام والرموز. طواها ووضعها في جيب حسني عندما جاء ليودعه قبل النقل.

همس له:

- إذا وصلت إلى غرفة التحكم قبل الظهر.. أدخل هذا. ولا تتردد.

نظر حسني إلى الورقة ثم إلى صديقه. رأى في عينيه القرار النهائي.

خارج المستشفى، كانت الشاحنات السوداء قد بدأت تصل.

والساعة كانت تشير إلى الحادية عشرة والنصف.

الفصل الرابع والعشرون

اللحظة الحاسمة

في الساعة الحادية عشرة والأربعين دقيقة، بدأت عملية النقل.

حُمل الدكتور فايز شهدي على نقالة نحو الباب الخلفي، محاطًا برجال الأمن التابعين للشركة. خلفه كان علوي حافظ يُقاد تحت حراسة مشددة نحو سيارة أخرى. حسني ويوسف سيرا في المقدمة تحت مراقبة لصيقة.

في اللحظة التي وصلوا فيها إلى ممر الطابق الأرضي، انطفأت الأنوار فجأة.

صراخ، فوضى، أضواء كاشفة تتحرك. استغل حسني الظلام ودفع الورقة المطرية إلى يد فني الكمبيوتر القديم الذي كان يقف قرب غرفة التحكم، وهمس له بالأمر. ركض الرجل.

انطلقت صفارات الإنذار.

في غرفة التحكم، بدأت الشاشات تومض باللون الأحمر. أُدخل الرمز. في ثوانٍ معدودة، بدأت الملفات تُحذف واحدًا تلو الآخر، ودوائر أجهزة الليزر الرئيسية تحترق من الداخل بشرارات صغيرة مرئية على الشاشات.

صاح أحد رجال الشركة:

- أوقفوه! أوقفوا النظام!

لكن الوقت كان قد فات.

وسط الفوضى، سقطت نقالة فايز. تحرر جزئيًا من الأشرطة، وزحف بضع أمتار قبل أن يمسك به الحراس من جديد. في تلك اللحظة القصيرة، التقى بصره ببصر علوي عبر الممر المزدحم.

شعر الاثنان بالرابط يهتز بعنف.

داخل رأس فايز انفتحت الهوة مرة أخيرة، لكنها هذه المرة لم تكن تبتلعه وحده. رأى علوي يقف على الحافة المقابلة، يمد يده. ذكريات الاثنين اختلطت: منى، العملية الأولى، الليالي الطويلة، الخوف، الأمل. للحظة واحدة صار الوعي مشتركًا تمامًا.

همس فايز بصوت لم يسمعه أحد إلا علوي داخل رأسه:

- انتهِ الأمر.. التقنية ماتت.

أجاب علوي من بعيد ومن قريب في آن:

- وأنت؟ هل ستبقى؟

ابتسم فايز داخل الهوة ابتسامة هادئة:

- جزء مني سيبقى معك. والباقي.. سيستريح أخيرًا.

انقطع الرابط فجأة بقوة الانفجار الإلكتروني الذي دمر الخوادم الرئيسية. سقط فايز على الأرض بلا حراك. علا الصراخ من جديد. رجال الشركة يحاولون إنقاذ ما يمكن إنقاذه من الأجهزة، والحراس يسيطرون على الموقف بالقوة.

عندما عادت الأنوار، كان كل شيء قد تغير.

الأجهزة الرئيسية محترقة، والبيانات الأساسية ممسوحة بلا رجعة. فايز يُحمل مرة أخرى، لكن عينيه كانتا مغلقتين بهدوء هذه المرة، وتنفسه سطحيًا ومنتظمًا. علوي كان يبكي بصمت وهو يُقاد بعيدًا، يضع يده على جبهته حيث كان الرابط ينبض للمرة الأخيرة.

في الخارج، وقفت الشاحنات السوداء بلا هدف تقريبًا. التقنية التي جاؤوا من أجلها لم تعد موجودة.

داخل المستشفى، في الممر الطويل، جلس حسني على الأرض مستندًا إلى الجدار، يمسك بالورقة الفارغة التي لم يبقَ منها إلا الرماد الإلكتروني، وينظر إلى النقالة التي تبتعد تحمل صديقه.

كان يعلم أن اللحظة الحاسمة قد مرت.

وأن ثمنها كان باهظًا جدًا.

الفصل الخامس والعشرون

النتائج

بعد أسبوع من الحادثة، أُغلق ملف «تجربة قضبان التحكم الذهني» رسميًا إلى الأبد.

الشركة سحبت رجالها بهدوء بعد أن تأكدت أن كل البيانات والأجهزة الرئيسية قد دُمرت بلا إمكانية للاستعادة. الجهة الأمنية أصدرت تقريرًا داخليًا يصف ما حدث

بـ«حادث تقني مؤسف»، ثم طوت الصفحة. المستشفى نفسه فتح تحقيقًا شكليًا انتهى بإيقاف حسني ويوسف عن العمل لمدة ستة أشهر، دون تهم جنائية مباشرة.

أما الدكتور فايز شهدي، فقد نُقل إلى جناح العناية المركزة النفسية في مستشفى آخر تحت اسم مستعار. استعاد جزءًا محدودًا من وعيه بعد الأيام الأولى، لكنه لم يعد الرجل نفسه. يتكلم ببطء، ينسى التفاصيل القريبة، ويقضي ساعات طويلة يحدق من النافذة. الهوة لم تعد تبتلعه، لكنها تركت فراغًا دائمًا في داخله. في اللحظات الصافية النادرة، يطلب قلمًا ويكتب جملة واحدة متكررة في دفتر صغير:

«اللغز ما يزال أكبر منا.»

علوي حافظ عاد إلى بيته بعد ثلاثة أسابيع. فقد جزءًا كبيرًا من الوضوح والقوة التي شعر بها في الأيام الأولى، لكنه لم يعد إلى الظلام القديم. أصبح رجلاً عاديًا مرة أخرى: يتذكر، يعمل، يحب زوجته وأولاده، ويحمل في أعماقه ذكرى الرابط الذي كان يربطه بفايز. أحيانًا، في الليالي الهادئة، يشعر بوخزة خفيفة في رأسه، كصدى بعيد، فيبتسم حزينًا ويهمس:

- ما زلت هنا يا دكتور.. جزئيًا.

حسني النجوى رفض العودة إلى المستشفى بعد انتهاء فترة الإيقاف. انتقل إلى مدينة أخرى، وعمل في عيادة صغيرة، ورفض أي حديث عن التجارب أو الأبحاث المتقدمة. يحتفظ بصورة قديمة له مع فايز في درج مكتبه، ولا ينظر إليها إلا نادرًا.

يوسف زكي اختفى من الأوساط العلمية لفترة، ثم ظهر بعد أشهر في مؤتمر جانبي يتحدث عن «حدود التدخل في الوعي البشري» دون أن يذكر أي تفاصيل شخصية.

التقنية نفسها ماتت مع الحريق الإلكتروني. لم يبقَ منها إلا شظايا نظريات في أوراق قديمة، وشائعات يتداولها بعض الباحثين في السر. لم يحاول أحد إعادة بناء ما دُمر. كان الثمن واضحًا جدًا للجميع.

في نهاية ذلك الشهر، زار حسني فايز للمرة الأخيرة. وجده جالسًا قرب النافذة، ينظر إلى حديقة هادئة. عندما رآه فايز، عرفهُ بعد لحظات من التردد، وابتسم ابتسامة ضعيفة.

قال حسني بصوت منخفض:

- دمرناها. لم يحصلوا على شيء.

هز فايز رأسه ببطء وقال بجمل متقطعة:

- حسنًا.. فعلنا الصواب. المخ.. ما يزال لغزًا. وهذا أفضل.

صمت الاثنان طويلاً. ثم أمسك فايز بيد صديقه للحظة قصيرة قبل أن يعود بنظره إلى النافذة.

خارج الغرفة، كانت الشمس تغرب مرة أخرى، وتلقي بظلالها الطويلة على الجدران البيضاء.

الفصل السادس والعشرون

الصدى

مرّت سنتان.

في مدينة أخرى، على بعد مئات الكيلومترات من المستشفى القديم، كان علوي حافظ يجلس في شرفة منزله الصغير مع زوجته. الأولاد يلعبون في الحديقة الخلفية. الشمس تميل نحو الغروب، والهواء هادئ.

فجأة وضع علوي يده على جبهته وأغلق عينيه لحظة. شعرت زوجته بالقلق وقالت:

- هل عاد الصداع؟

ابتسم علوي ابتسامة مطمئنة وفتح عينيه:

- لا.. مجرد صدى قديم. يمر بسرعة.

كان الصدى يأتي أحيانًا في ليالي الصيف الهادئة: شعور خفيف بالسقوط، أو لمحة سريعة لغرفة بيضاء، أو صوت بعيد يشبه صوت الدكتور فايز وهو يهمس «اللغز ما يزال أكبر منا». لم يكن مؤلمًا. كان أشبه بندبة داخلية تذكره بما حدث، وبما فقده، وبما أنقذه.

في المستشفى البعيد، كان فايز شهدي ما يزال هناك. حالته استقرت عند مستوى معين: يستطيع أن يأكل ويتكلم ويمشي ببطء داخل الحديقة المغلقة، لكنه لم يعد قادرًا على ممارسة الطب أو حتى قراءة الأبحاث الطويلة. يقضي معظم وقته جالسًا تحت شجرة كبيرة، يكتب أحيانًا جملًا قصيرة في دفتره، أو يراقب الطيور.

زاره حسني مرة كل بضعة أشهر. في إحدى الزيارات، وجد فايز يبتسم له بوضوح أكبر من المعتاد. قال بصوت هادئ:

- أحيانًا أشعر به. علوي. كأنه يرسل لي سلامًا من بعيد. الرابط لم يمت تمامًا.

ابتسم حسني حزينًا وقال:

- هو بخير. يعيش حياة طبيعية. يتذكرك دائمًا.

هز فايز رأسه ونظر إلى الأفق:

- هذا يكفي. لقد دفعنا الثمن، وحفظنا اللغز من أن يُستخدم ضد الناس. المخ البشري ما يزال أكبر من أن نتحكم فيه بالكامل. وهذا رحمة.

في مكان آخر، كان يوسف زكي يلقي محاضرة في جامعة صغيرة عن أخلاقيات التدخل في الوعي. لم يذكر الأسماء، لكن كل من استمع إليه شعر أن الرجل يتكلم من تجربة شخصية عميقة. في نهاية المحاضرة قال جملة واحدة علقت في أذهان الطلاب:

- بعض الأبواب يجب أن تبقى مغلقة. ليس لأننا لا نستطيع فتحها، بل لأن ما خلفها قد يبتلعنا جميعًا.

أما التقنية، فقد أصبحت مجرد شائعة قديمة يتداولها بعض الباحثين المتقدمين في جلسات مغلقة، ثم يصمتون بسرعة. لم يحاول أحد إعادة بنائها. كان الدرس واضحًا بما فيه الكفاية.

في ليلة هادئة من ليالي السنة الثانية، نظر علوي إلى السماء من شرفته وهمس كمن يكلم صديقًا بعيدًا:

- ما زلت أسمعك أحيانًا يا دكتور. وأنا بخير. نمتَ أنت أيضًا بهدوء.

وفي الغرفة البعيدة تحت الشجرة، رفع فايز رأسه فجأة كمن سمع شيئًا، وابتسم ابتسامة صغيرة قبل أن يعود إلى صمته.

الصدى كان ما يزال موجودًا.

خفيفًا، بعيدًا، لكنه حي.

الفصل السابع والعشرون

الخاتمة

في صباح هادئ من صباحات السنة الثالثة، جلس الدكتور فايز شهدي تحت الشجرة الكبيرة في حديقة المستشفى.

كان الخريف قد بدأ، والأوراق الصفراء تتساقط ببطء حوله. النور خفيف ولطيف، والهواء يحمل رائحة تراب مبلل. على ركبتيه دفتر صغير مفتوح، والقلم يرتعش قليلاً بين أصابعه.

كتب جملة واحدة، ثم توقف.

رفع رأسه ونظر إلى الأفق البعيد. للحظة قصيرة جدًا، شعر بالصدى القديم: لمحة من شرفة بعيدة، صوت أطفال يضحكون، وشعور دافئ يشبه السلام. ابتسم.

ثم جاءه الشعور الآخر، الأعمق: الهوة التي لم تعد تبتلع، لكنها ما تزال موجودة في مكان ما داخل رأسه، هادئة ومظلمة، كبئر قديم لا قعر له. نظر إليها داخليًا دون خوف هذه المرة.

همس لنفسه بصوت بالكاد يُسمع:

- ما زلت هنا. وأنتِ ما زلتِ أكبر مني.

تذكر منى، وتذكر علوي، وتذكر الليلة التي قرر فيها أن يجرب المستحيل. ابتسم مرة أخرى، ابتسامة هادئة ومتعبة وراضية في آن واحد.

كتب الجملة الأخيرة في الدفتر:

«اللغز لم يُحل. وربما كان هذا هو الجواب الوحيد.»

أغلق الدفتر برفق، ووضعه إلى جانبه على العشب. استند إلى جذع الشجرة، وأغلق عينيه.

في مكان بعيد، على شرفة منزل صغير، توقف علوي حافظ فجأة عن حديثه مع زوجته، ونظر إلى الأفق كمن سمع اسمه يُنادى من مسافة طويلة. وضع يده على صدره، وابتسم حزينًا وودودًا، ثم عاد إلى حياته.

تحت الشجرة، كان تنفس فايز بطيئًا ومنتظمًا. الأوراق تتساقط حوله واحدة بعد أخرى، تغطي الدفتر تدريجيًا.

المخ البشري ما يزال لغزًا.

وهذا يكفي.

انتهت الرواية